دعائم الوحدة الإسلامية
في القرآن الكريم

د/ صلاح الدين يوسف سلبي

الأستاذ المساعد بكلية الشريعة

جامعة قطر

العالم كله بنواميسه وقوانينه لم ينتظم إلا بأسس ثابتة وإلا لأصابه الخلل والعطب ، ومن البدهيات الأولية أنه لابد لكل شيء من أساس وناموس ، فالذى لا أساس له فهدوم وضائع، والذى لا ناموس له ضليل متخبط .

والقرآن كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، المحفوظ بعين الله ورعايته «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(١) أعطى الدنيا النظام الكامل ليجمعها على كلمة سواء، ويوحد بينها على أسس قويمة ، ورحمة تجمع بينهم ، وسعادة تحيطهم فى كل نواحى حياتهم الأسرية والإجتماعية ، والإقتصادية ، يقوم على مخاطبة الفطرة الإنسانية واستثارة ما فيها من قوى روحية تتمثل عقائد ثابتة . وخلائق فاضلة ، وأفكاراً عالية ، وأعمالا نافعة ، وتنظم ملكات الفرد وحياة الأسرة ، وطبقات الأمة ، وواجبات الدولة ، وعوامل الإتصال والأخوة بين العالمين ، ثم هو يرد ذلك كله إلى قواعد اجتماعية حكيمة دقيقة ، تمتزج فيها المثالية السامية الملموسة التى تتصل بدنيا البشر وحياتهم اتصالا وثيقاً ، حتى أنه ليحول كثيراً من هذه القواعد النظرية إلى أعمال يومية تتكرر كل صباح ومساء فى غاية البساطة والسهولة واليسر : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون»(٢) ، « ونزلنا الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»(٣) .

وهذا التساند فى منهج القرآن الكريم هو ميزة الإسلام على سائر التنظيمات الوضعية السابقة والمعاصرة ، فهو يخاطب الناس جميعاً لا فرق

(١) الحجر : الآية ٩
(٢) سورة المائدة : ٦
(٣) سورة النحل : الآية ٨٩

بينهم فى جنس أو لون أو لغة ، فكل إنسان من حقه أن يكون ضمن المسلمين فى أى مكان كان ، وأى وقت شاء ، وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»(١) .

ومن خلال هذا التساند لمبادىء الإسلام التى جاء بها القرآن الكريم، لا نرى تفوق جنس على جنس ، أو إنسان على غيره بالحسب ، أو النسب فلا تفاضل بالأنساب ، أو الأجناس أو الغنى ، أو الجاه ، أو نحو هذا مما تعارفت عليه الأمم وجعلته أساساً للتفاضل ومقياساً للقيم .

لقد جاء الإسلام والعالم قد انقطع عن الحق وضل عن سواء السبيل ، ليعيد التوازن بين البشر ، بعد أن خفت صوت الرسل السابقين وضاعت معالم الرسالات الإلهية الحقة التى أرسلها الله لعباده ، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب موطن بيته الحرام، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية بعد مهدها الأول بالشام ومصر وفارس .

حيث كانت المذاهب المختلفة مثل المانوية ، والزرادشتية والمزدكية، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة .

وهكذا كانت العقول والقلوب فى القرن السادس الميلادى فارغة تحتاج إلى ما يملؤها ويسد فراغها ، ويبعدها عن السآمة والملل ، والأوهام التى سيطرت على النفوس ، والأوهام وأن تحكمت فى النفوس غير صالحة للبقاء ، إنما الذى يصلح للبقاء هو مايتفق مع الفطرة السليمة ، والتفكير الصحيح ، فالعالم شرقه وغربه كان فى حاجة إلى العقيدة الصحيحة يحملها إليهم هادياً ومرشداً لا يكون على شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، فكانت الرسالة التى يحتاج إليها العالم يحملها الداعية الأول محمد ﷺ .

(١) سورة سبأ : ٢٨

داعية الإسلام الأول :

وداعية الإسلام الأول هو رسول الله ﷺ ، وهو بسمته المشرق وأخلاقه العالية وأسلوبه المأثور وحياته كلها ، هو بكل ذلك ﷺ الثوب الذى نسجته يد الله لتلبسه معانى الإسلام للناس ، والصورة الإنسانية الكاملة فى التخلق بأخلاقه وفى الدعوة إليه ، «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(١) .

فإذا كان القرآن الكريم هو المرجع النظرى لدعاة الإسلام فإن سيرة داعيته الأول هو المرجع التطبيقى بين أيديهم ، إذا اختلفت أفهامهم حول آية ففهمه ﷺ — حين يثبت — هو الفهم ، وإذا تباينت أساليب الدعوة فأسلوبه هو الأسلوب ، وإذا اضطربت الأذواق فذوقه هو الذوق الإلهى الرفيع .

ولعلك إذا استقصيت شأنه ﷺ مع الناس فى كل أحواله لوجدته شأنا واحداً لا يختلف وحقيقة مستعلنة لا تخبو أشعتها : كان «داعياً إلى الله» يذكر بالله حاله ومقاله ، فهو فى همسة حين يهمس ، وفى هديره كالسيل حين يخطب ، وفى قضائه حين يفصل بين الناس ، وفى حفظه لعهده مع معاهديه — وإن كانوا ألد الأعداء — وفى تنظيمه لسائر شئون المسلمين ، هو ذلك جميعه يحمل حقيقته الربانية الثابتة وراء فكره ولسانه ، ويسعى مع الحياة فى مختلف جهاتها بدعوة سافرة يفهمها الأمى الذى لم يدخل مدرسة ، والعالم الذى أحرز من العلم أوفى نصيب .

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٤

واستطاع النبى الأمى أن يصنع أمة واحدة ، لها رئيس واحد ، وتتبع سياسة واحدة ، وتستهدف غاية واحدة هى نشر الدين الحق للإنسانية جميعا ليكون هاديها للخير ، وعز للدنيا وسعادة الآخرة . وكان من أوائل ما صنع الرسول — ﷺ فى هذا السبيل ، أن عمل على إزالة ما كان بين الأوس والخزرج «يثرب» من عداوة كانت لا تزال مشوبة النار ، بأن وحد بينهم وجعلهم أنصارا له على أعدائه من المشركين .

فالدعوة التى قام بها خاتم المرسلين محمد ﷺ دعوة واعية ، تذكر المسلمين بحقيقة دينهم ، وبأن ثورة المسلم دائما ثورة لله والحق ، وليست هبة على غير هدى ، وبأن الله حين نزل قرآنا وبعث نبيا ، إنما أراد بذلك أن يرتفع بنفسه قواعد البناء «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها »(١) وأن يقرر لجنده فى الأرض أصول كفاحهم فى سبيله .

وهذا البحث نحاول أن نعرض ما قررة الإسلام من قواعد وأصول للوحدة التى كانت السبب فى جمع الأمة الإسلامية على كلمة سواء ، ولم شمل العرب من شتات إلى كيان واحد ، ومن ضعف إلى قوة ، وذلك فى نور كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ويمكن تركيز هذه القواعد وتلك الأصول فى أربع :

١ — الإيمان بالله .

٢ — وحدة أحكام الشريعة .

٣ — العبادة .

٤ — إخوة الإسلام .

---

(١) سورة الجاثية .

١ – الإيمان بالله

مصطلح قرآنى، وحقيقة ذات شأن فى دين الله ، بل هى قاعدته وأساسه المتين ، ولقد ذكر لفظ إيمان وما يشتق منه أكثر من ثمانمائة مرة(١) وفى بداية البحث لا بد من تحديد معنى الإيمان عند المحققين من أهل السنة ، وهو مجرد الاعتقاد القلبى .

وقد ذكر علماء أهل السنة له تعريفات مختلفة تتفق فى المضمون ، وتختلف فى العبارة .

قال البيضاوى فى تعريف الإيمان(٢) :

« وأما فى الشرع فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء » .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يوافق هذا المعنى ، جاء فيه : « وهو فى الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام كالتوحيد والنبوة ، والبعث والجزاء ونظائرها »(٣) .

وقال الألوسى : « وأما فى الشرع فهو التصديق بما علم مجىء النبى ﷺ به ضرورة تفصيلا فيما علم تفصيلا ، وإجمالا فيما علم إجمالا »(٤) .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى من ص ٨١ : ص ٩٣

(٢) تفسير البيضاوى ص ٨ (٣) تفسير أبو السعود ١/٥٢

(٤) تفسير الألوسى ١/١١٠

ومن هذه التعاريف يفهم أمرين :

الأول : التصديق .

الثانى : متعلقة ، وهو المعلوم من الدين بالضرورة .

والتصديق عنصر قلبى وجدانى فهو الإذعان والقبول أو بعبارة أوضح الرضا والتسليم والاطمئنان القلبى ، وترك التكبر والعناد لا مجرد المعرفة بحقيقة نبوته وصدقه عليه الصلاة والسلام .

والمعرفة عنصر ذهنى عقلى فهى اليقين والعلم الجازم .

ولا يتحقق الإيمان إلا بوجودهما معا ، فلا بد من أعمال العقل والقلب جميعا ، وعنصر العلم والمعرفة العقلية مقدم ليكون ركون القلب بعد ذلك على بصيرة ، وعلى هدى من نور العلم والمعرفة ، قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(١) .

والعقيدة الإسلامية أو بالتعبير الشرعى الإيمان هداية كاملة للعقل ، قال تعالى : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »(٢) قال الشوكانى فى تفسيرها(٣) : « وهم مهتدون إلى الحق ثابتون عليه ، وغيرهم على ضلال وجهل » .

والأنبياء جميعا كلهم دعاة إلى الله والربانية هى صفتهم الأولى وغاية رسالتهم جميعا : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب »(٤) . وكل ما سوى ذلك من الشعائر والأحكام

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ (٢) سورة الأنعام : ٨٢

(٣) تفسير « فتح القدير » لمحمد بن على بن محمد الشوكانى ٢/١٣٥

(٤) إبراهيم : ٥٢

إنما هو ضمانات لازمة لصلة الناس بالله : تقوم أساسها وترسم حدودها ، وترد العاديات عنها . وتحفظ الحياة كلها محرابا واسعا : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت »(١) .

الحقائق الأساسية فى الإسلام :

والحقائق التى طلب الإسلام الإيمان بها ، وكانت العنصر الأول من عناصره هى :

أولا : وجود الله ووحدانيته ، وتفرده بالخلق والتدبير والتصرف ، وتنزهه عن المشاركة فى العزة والسلطان ، والمماثلة فى الذات والصفات ، وتفرده باستحقاق العبادة ، والتقديس والاتجاه إليه بالاستعانة والخضوع فلا خالق غيره ، ولا مدبر غيره ؛ فليس كمثله شىء فقلوب العباد لا تتعلق إلا بالواحد القادر سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)(٢) ، « قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين »(٣) .

ثانيا : أن الله يصطفى من عباده من يشاء ليكونوا سفراءه إلى الناس يدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح . ومن هنا وجب الإيمان بجميع رسله من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ .

ثالثا : الإيمان بالملائكة والكتب التى أنزلها الله .

رابعا : الإيمان بالبعث والجزاء .

(١) الأنعام : ١٦٢ (٢) سورة الإخلاص .
(٣) سورة الأنعام : ١٤

وقد جعل الإسلام المفتاح الذى يدخل به الإنسان فى الإسلام الشهادة بأن الله واحد ، وأن محمدا رسوله « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » . فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة فى الله من جهتى الربوبية « الخلق والتربية » والألوهية « العبادة » .

والشهادة برسالة محمد تتضمن الإيمان بكمال دين الله وتمامه والإيمان بالملائكة ، والكتب والرسل ، واليوم الآخر « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله »(١) .

بساطة وإشراق :

وبقدر أهمية معنى الإيمان بالله فى دعوة الإسلام ، كان وضوحه ، وبساطته ، ولم يؤثر عن النبى - ﷺ - ولا عن صحابته شيئا مما امتلأت به كتب الفلسفة من خلافات جامدة حول معنى الإيمان إلى غير ذلك من التكلف الذى يذهب صفاء النفس وبشاشة الإيمان .

لقد كان المسلم الأول يجلس بين يدى النبى ﷺ لحظات لا يسمع فيها إلا كلمات معدودات يخرج بعدها مؤمنا أروع ما يكون الإيمان ، وكان يكفيه أن يتلى عليه مثل قول الله عز وجل : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »(٢) فتخشع جوارحه ويستشعر فى كلمة الغيب حقائق وراء حواسه وإلا لما كانت غيبا ، ثم يصيخ سمعه إلى آيات الله يستقبل بها حقائق الغيب العليا ليؤمن بها كما هى ، فالله حق والنبوة حق ، والملائكة حق والوحى حق ، والموت

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ (٢) سورة البقرة : ٢ : ٣

حق والبعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق . . . وإيمانه بكل ذلك حقيقة يجد هو اتفها فى أعماقه يتمثل صورتها السهلة المشرقة فى رسوله ﷺ قائما يناجى ربه فى جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، والحمد لك أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت واليك أنبت ، وبك خاصمت واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وأعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت » (١) .

ثم أنك تجد رسول الله ﷺ واقفا يحرس هذا الإيمان السهل المشرق ، ويسد دونه منافذ الفتنة والضلال : روى الأصبهانى فى الترغيب والترهيب أن رسول الله ﷺ قال : « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره » (٢) .

هكذا مضى السلف فى إيمانهم بربهم ، شعارهم شعار نبيهم « وما أنا من المتكلفين » (٣) .

وهكذا يجب أن تؤرث دعوتهم ويسلك سبيلهم حتى لا نعيش فى متاهات فلسفية لا طائل من ورائها إلا حجب الصورة المشرقة للاسلام ولتعاليمه السمحة .

وانبياء الله أرسلوا لينيروا الحياة من ظلمة لا ليعقدوها ، ويوسعوها من ضيق ، ويضعوا عن الناس أوزارهم واثقالهم والأغلال التى كانوا فيها

(١) خاتم النبيين ٣٩٠ الشيخ محمد أبو زهرة .
(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٩٠
(٣) سورة ص — ٨٦

يرسفون ، فدعوتهم ليس فيها مجال لوهم ولا خرافة هى : الوحدانية ، والإيمان بالغيب ، والرسل أجمعين ، فأول هذه الدعائم — الإيمان بواحد أحد هو الفرد الصمد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وان الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم وحده ، وهو الغالب على كل شىء ، القاهر فوق عباده يربى العزة فى قلب المؤمنين ، فلا يزلون لمخلوق لأنهم مثلهم ، ولا يخضعون إلا للواحد الأحد ، الذى يتساوى عنده الجميع فلا غالب ولا مغلوب ولا قاهر ولا مقهور ، بل السلطان كله للواحد القهار .

لقد حدثنا التاريخ عن قوة العقيدة التى أوجدت من بغاث الطير نسورا ، ومن ضعيف العرب أسدا حصورا فطوقوا الدنيا ، وتركوا من خلفهم ديارهم وأوطانهم طائعين ممتشقين سيوف الله البتارة ليهدموا وثنية غبراء ويقيموا على انقاضها دولة مؤمنة موحدة تحول العبيد فيها إلى أحرار فى أنفسهم لا يخضعون إلا لله وحده ، فاستصغروا ملاكهم لأن أولئك كانوا يسجدون للأحجار ، ويعبدون أوثانا ينحتونها بأيديهم ، أما عبيد الأمس فان أرواحهم لا تخضع إلا لله سبحانه ولذلك شاركوا فى اقامة أمة لا تخضع لتحكم الأقوياء فى الضعفاء ، وسيطرة المادة وغلبة الأشقياء لأن العقيدة الصحيحة زكت نفوسهم ، وطهرت عقولهم ، وربت فيهم الإحساس القوى الذى يسموا على غلبة المادة ، ويستشعر القوة والعزة بعزة الله تعالى ، وبأنهم أقرب إلى الله ، وأنهم أشداء على الذين كفروا رحماء بينهم يبتغون من الله تعالى فضله .

ولا يكون ذلك الإحساس إلا بايمان قوى بأن الله تعالى مالك الملك ذو الجلال والاكرام وأنه وحده لا شريك له ، فالايمان بالواحد الأحد فوق أنه ينقى القلوب ويطهرها ، وينزه العقول ، يبعدها عن الأوهام الفاسدة ، يربى فى الجماعات الإنسانية العزة بعزته ، ويبعد عنهم المسكنة للباطل وأهله .

فالايمان بالله معرفة تتغذى بها النفس ، ويصحو معها العقل على حقائق الوجود فهو غذاء للنفس ، ويقظة للعقل (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١) .

أنه لابد فى الإيمان من عمل العقل والقلب ، ولكن عنصر العلم والمعرفة العقلية مقدم ليكون ركون القلب بعد ذلك على بصيرة ، وعلى هدى من نور العلم والمعرفة ، وهذا الترتيب تجده صريحا فى كتاب الله عز وجل : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢) .

فجعل العلم بالحق أولا ، فالقرآن يخاطب العقول ، وحيث كان العمل للعقول بعدت الأوهام والخرافات ، فيكون دائما المقياس الصحيح الثابت الذى يميز به الناس بين ماهو دخيل فى الاعتقاد وبين لب الاعتقاد ومعناه ، فالعقيدة الإسلامية فى ذاتها بعيدة عن الأوهام والخرافات ، وهى مطهرة للنفوس من أرجاسها ، فصدرها ثابت يرجع إليه دائما ، وهو يدعو إلى التفكير فى السموات والأرض وما فيهما .

وقد استدل القرآن على الوحدانية بالعلم والنظر ، لا بالغرض والوهم ، فترى فيه الآيات الكثيرة التى تدعو إلى النظر فى المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الخالق ، وأنه واحد أحد ، وأنه لا يشبهه شىء مما خلق ، قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (٣) .

وقال أيضا فى الاستدلال على الوحدانية بتوجيه الأبصار والعقول إلى أسرار الكون وما فيه من دلائل عليها .

(١) النساء : ٦٥ (٢) فاطر : ٢٨

(٣) سورة يونس : ١٠١

« أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١) .

وهو بهذا الأسلوب التوجيهى الرائع يهذب العقول ويدعوها إلى النظر والتفكر .

أن العقيدة مع كونها فى ذاتها هداية عظمى حيث تكشف عن الحقائق الكبرى المتعلقة بالكون والإنسان ، هى فضلا عن ذلك القاعدة الصحيحة للتفكير القويم ، وحسن التقدير وصدق الحكم على الأعمال والأشخاص والبصر النافذ بالخير والشر ومسالك الهدى والضلال .

قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » (٢) .

قال البيضاوى (٣) : « بإيمانهم » بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة أو لإدراك الحقائق ، كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، أو لما يريده فى الجنة ، ومفهوم الترتيب وإن دل

(١) سورة النمل : ٦٠ : ٦٤ (٢) سورة يونس الآية ٩

(٣) تفسير البيضاوى ص ٢٧٣

على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دل منطوق قوله « بإيمانهم » على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له .

وقال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (١) .

يوضح ما تقدم قصة قارون ، فإنه لما خرج على القوم في زينته اختلفت أنظارهم في تقدير حاله وفي الحكم عليه ، فأما الذين يريدون الحياة الدنيا سواء كانوا كفارا أو ضعاف الإيمان فأعجبوا بزينته ، وتمنوا أن يكونوا في مثل وضعه ، وغفلوا تماما عن كفره وضلاله .

أما من سكن الحق قلبه فلم تبهرهم تلك المظاهر الزائفة ، ولم تخدعهم عن الحقائق ولم تلفتهم أو تميل بهم عن طلب السعادة الحقيقة وطريقها الصحيح فكان رأيهم مخالفا لضعاف النفوس .

قال تعالى : « فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون أنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٢) .

ومن أوضح الأمثلة لذلك ما يروى عن أهل الإيمان :

« أرسل سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية ربعي بن عامر — ذلك الجندي البسيط في جيشه — إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ (٢) سورة القصص : ٧٩ : ٨١

الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط . ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له :

ضع سلاحك . فقال : إني لم أتكلم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له : فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (١)

فهذه الأقوال وتلك الأفعال لا تصدر إلا عن إنسان ملك عليه الإيمان عقله وقلبه فجعله يستهين بتلك الطواغيت وما يملكون من زينة الحياة وزخرفها .

فالفهم السليم لشيء ما يهدي إلى السلوك والتصرف الصحيح إزاءه ، كما أن الفهم الخاطئ يقود صاحبه إلى الغفلة والضلال .

وكذلك الحال بالنسبة للكون والحياة ، فمن أدرك سر الوجود وأحاط بحقائقه التي جاء بها الإيمان ، فعلم أن للعالم خالقا له الكمال كله ، وأن هناك آخرة سيجازى فيها بعمله ما دق منه وما جل بالخير خيرا وبالسوء سوءا ، وأنها جنة أبدا أو نار أبدا من علم ذلك وآمن به دله حتما وعرفه سبيل الرشاد وزجره ونهاه عن طريق الغي والفساد

(١) هذه القصة جاءت في كتاب تمام الوفاء في سيرة الخلفاء تأليف محمد الخضري ص ١٠٠

قال تعالى . «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب»(١)

تلك عقيدة الاسلام بنورها وإشراقها ، وفى أصالتها ورسوخها فاين ذلك من العقائد الضالة : والنظريات المخرفة التى قادت البشرية إلى الانحلال والفرقة والبغضاء .

فالإسلام — إذن — هو الدين الجامع ، وهو آخر أدوار الرسالات الإلهية ، وهو الجامع بينها ، وهو آخر الخطوات فى كمال الدين السماوى ، لذلك قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا»(٢)

الإسلام دين الوحدة والتوحيد

فكمال الإسلام بكمال أصوله وأحكامه فهو دين التوحيد والوحدة .. فليس بمسلم من أشرك غير الله فى عبادته ، أو اعتقد أن لله شبيها ، أو اعتقد أن الله تعالى متصف بما يتصف به العباد من خواص جسمانية ، فكل ماهو من صفات الحوادث فالله تعالى منزه عنه ، لأنه خالق كل شىء فلا يشبه شيء من الأشياء . وكما أنه دين التوحيد دين الوحدة الإنسانية الجامعة ، فالناس جميعا سواء بالنسبة للأحكام الإسلامية ، وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين . فيقول سبحانه وتعالى «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون»(٣)

(١) الزمر : الآية ٩ (٢) المائدة : الآية ٣
(٣) يونس : الآية ١٩

ويقول سبحانه : «كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»(١)

فالاتجاهات الإنسانية ، واتحاد الغرائز من أسباب اختلاف الناس فيما بينهم . فكل إنسان يحب أن يكون له أكبر قدر من المطالب والوصول إلى أقصى مايحب من الغايات ولذلك كان لابد من فاصل يرسم الحدود ويقيد الغايات ، لتتلاقى فى خط مستقيم من غير انحراف ولا تقاطع ، بل يكون لكل فرد فى المجتمع خط موازٍ لخط أخيه ، وكل الخطوط تنتهى إلى خدمة الجماعة الإنسانية ، وبذلك تتحد الغايات والأهداف .

والقرآن الكريم هو الحد الفاصل الذى يرسم للناس طريقهم ، ويوضح لهم المسلك الذى يجب أن يكونوا عليه ليعيش الجميع فى مجتمع آمن فلا صدام ولا خصام ، ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة فالتكاليف التى يفرضها الإسلام كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة . لا تتجاوز الطاقة ، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ، ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنس حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجسمانى والروحى لا تلبيها فى يسر وسهولة ، ومن ثم لا يحار ولا يقلق فى مواجهة تكاليفه .

والمجتمع الذى يعيش فى ظل هذا النظام الذى يطهر العقول من الأوهام فلا معبود إلا الله وحده وتحت هذه المظلة من الأحكام المتكاملة مجتمع تسوده المودة والمحبة والترابط والتضامن والتكافل .

(١) سورة البقرة آية ٢١٣

هذا المجتمع الذى تربطه آصرة واحدة ـ آصرة العقيدة ـ حيث تذوب فيها الأجناس والألوان والأوطان ، واللغات ، وسائر هذه الأواصر العرضية التى تخلق فى نفس الإنسان الحقد والحسد ، والتنافس البغيض ، وكل هذا لا علاقة له بفطرة الإنسان .

هذا المجتمع الذى يسمع الله يقول له : « إنما المؤمنون إخوة »(١) والذى يرى صورته فى قول النبى ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٢) .

هذا المجتمع الذى من آدابه : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »(٣) « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور »(٤) « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(٥) « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٦) . ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »(٧) .

(١) سورة الحجرات : آية ١٠

(٢) رواه الإمام مسلم فى كتاب البر ، باب ٦٦ وأخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٢٧ ج ٧ ص ٧٧

(٣) سورة النساء : آية ٨٦ (٤) سورة لقمان : آية ١٨

(٥) سورة فصلت : آية ٣٤ (٦) سورة الحجرات : آية ١١

(٧) سورة الحجرات : آية ١٢

هذا المجتمع الذى من ضماناته : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »(١) . « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا »(٢) . « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »(٣) .

هذا هو المجتمع الذى يربى فيه الجميع على النظافة والطهارة ، ولا يتبجح فيه الأغراء ولا تروج فيه الفاحشة ، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات ، ولا ينطلق فيه سعار الجنس ، كما تنطلق فى المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا .

هذا المجتمع تحكمه شريعة الله ، والتوجيهات الربانية التى سوت بين الناس فى المعاملة ، فلا تعامل ذا لون بمعاملة ، وتعامل اللون الآخر بغيرها بل المعاملة واحدة . ولقد بين الله سبحانه وتعالى أن أصل التكوين الإنسانى واحد ، وأن الطبيعة الإنسانية واحدة ، فيجب أن تكون المعاملة الإنسانية واحده ، وإلا كانت تفرقة من غير مسوغ ، لأن مقتضى المنطق الإسلامى أنه ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر . يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا »(٤) .

فالإسلام جعل التفاوت بين الناس بالفضيلة والعمل الصالح : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .. سمع النبى ﷺ رجلا يقول لآخر يا ابن السوداء ، معيرا له بسواده ، فغضب عليه السلام

(١) سورة الحجرات : آية ٦ (٢) سورة الحجرات : آية ١٢

(٣) سورة النور : آية ٢٧ (٤) سورة النساء : آية ١

وقال : « لقد طف الكيل ، لقد طف الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى »(١) .

لقد جعل القرآن الكريم اختلاف الناس شعوبا وقبائل للتعارف والتعاون لا للتباغض والتنازع ، ولذلك قال سبحانه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »(٢) .

فاختلاف الشعوب له غاية عظيمة أرادها الله سبحانه وتعالى ، وهو التعارف ، وهذا التعارف له ظواهر .

الظاهرة الأولى : اللقاء على مودة وتراحم فى أمن وسلام لا فى حرب وخصام .

الظاهرة الثانية : التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض ، بحيث ينتفع كل إقليم بما هو فى الإقليم الآخر من خير ، ويمده بما عنده من من فائض فى مقابل أن ينتفع هو بما عنده ، فإذا كانت الأرض مختلفة فيما تنتج فالإنتاج كله للإنسانيـــة كلها ، فتكون تفرقة الأقاليم ليكون الاستغلال كاملا .

الظاهرة الثالثة : احترام كل إقليم للآخر ، فلا يوجد تعارف إذا كان إقليم يحتقر إقليما لأن ذلك يكون تناكرا ولا يكون تعارفا ، ولابد أن يحترم الحريات فلا يكون أساس العلاقات الإرهاق النفسى وعدم احترام الحرية الشخصية لأن ذلك لا يكون تعارفا ، بل يكون استعبادا أو استرقاقا أو استعمارا بلغة العصر .

---

(١) كلمات فى مبادىء علم الأخلاق للدكتور / محمد عبدالله دراز ص ٤

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣

والقانون الإسلامى ذهب إلى أبعد من ذلك باحترامه للحرية الدينية لمن خالفه فلا يجيز الإعتداء عليهم ، وقاعدته الفقهية المقررة « وأمرنا أن نتركهم وما يدينون »(١) .

أين هذا من القوانين التى يحتكم إليها الناس ، ويدافع عنها الكثير ممن عميت بصائرهم فاختلط الأمر فى أذهانهم ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين ما يصلح وما يضر ، وأترك القانون الذى يحكم البشرية الآن لينظر فيه كل من أوتى العقل وفصل الخطاب ، وأقصى ما كان يحدث من قبـــل لتكون المقارنة بين ما حدث وما يحدث اليوم وهل هناك فارق جوهرى بينهما :

« فى الهند — مثلا — ترى الديانة البراهمية نفسها هى التى تقسم الأمة إلى طوائف أربعة ، وتجعل أعلى هذه الطبقات البراهمة أو الكهنة وأدناها السفلة أو الأنجاس ، ويكفى لتدرك ظلم هذا النظام الطبقى الصارخ وقسوته البالغة ، أن تعرف أنه جاء فى قوانين أحد مشرعى هذه الديانة وهو « منو » أن البراهمى يجب إحترامه بسبب نسبة وحده ، وأحكامه هى وحدها الحجة وأن له — حين الحاجة — أن يمتلك مال الواحد من السفلة ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده ، وكان محرما على هذه الطبقة المنكودة ، أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم به ، وإلا حل به عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه ، وشق لسانه ، وتقطيع جسمه »(٢) .

وإذا كان الهنود ، كما رأينا ، قد فرقوا أمتهم فأقاموا المجتمع على نظام

---

(١) الجدل للشيخ أبو زهرة ص ٣٢

(٢) كتاب حضارة الهند للدكتور جوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ زعيتر ص ٤٥ . وما بعدها وكتاب قصة الحضارة ترجمة الدكتور / زكى نجيب محمود ج ٣ ص ١٦٦

طبقى بغيض فإن اليهود ، وهم أصحاب دين سماوى — قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه . وحين فرقوا فى تشريعاتهم بين اليهودى وغير اليهودى فحرموا الربا بشدة بين بنى إسرائيل وجعلوه تجارتهم الرابحة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم ، ذلك لأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل !

كما أنهم أباحوا إسترقاق من سواهم بينما ليس لإسرائيلى أن يستعبد إسرائيليا بحال ما ، بل عليه أن يحسن عشرته ويساعده على الحياة »(١) .

هذه هى النزعات المفرقة للأمة الواحدة من جانب ، وللعالم كله من جانب آخر ، نرى الإسلام يقرر فى صراحة لالبس فيها ، وقوة لا هوادة معها ، « وحدة » الناس جميعا لا فرق بين جنس وجنس وأمة وأمة .

فليس هناك طبقات فى الأمة ، وليس هناك تشريعات للعربى وأخرى لغير العربى ، بل العالم كله فى نظر الإسلام من هذه الناحية « وحـــدة » واحدة ، تحكمه شرائع وتعاليم واحدة ، لا فرق بين الخليفة والرعيه أو الحاكم والمحكوم .

فالمجتمع الذى يحـكمه النظام الإسلامى تكفل فيه حريات الناس وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع ، بعد كفالتها بالتوجيه الربانى المطاع ، فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة ، ولا تيسور على أحد بيته ، ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة .

---

(١) يرجع فى هذا إلى التوراة نفسها ، سفر التثنية ١٥ : ٧ — ٨ ، سفر اللاويين ١٥/٣٥ — ٣٩ على أن هذا معروف فى تاريخهم وحاضرهم .

المجتمع الذى يقوم على الشورى والنصح والتعاون ، كما يقوم على العدل والمساواة التى تشعر من ينضمون إليه بأنهم بشر لهم كرامة وإنسانية .

أمانة كاملة :

لم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بين للناس ما نزل إليهم وتركهم على المحجة البيضاء والطريق الواضحة وحتى شهد الله بتمام ذلك كله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »(١)

مضى الرسول ﷺ إلى عليين بعد أن بلغ ما أرسل به من ربه ، وترك أمانة كاملة فى أعناق الذين اتبعوه ، وقام الخليفة الراشد « أبو بكر » يحملها ويمضى بها لا يحيد عن مواطىء أقدام النبوة ولا يرى فى الأرض طريقا غير طريقها : إرتد العرب والمسلمون كما يقول عروة ابن الزبير كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وردة من ارتد ، وأراد أبو بكر بالرغم من ذلك أن يبعث جيش أسامة إلى الشام تنفيذاً لرغبة رسول الله ووصيته ، فقام أهل الرأى يقولون : « إن جيش أسامة يضم جل المسلمين والعرب على ما ترى قد إنتفضت بك وليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين » فلم يكن من أبى بكر إلا أن قال : « والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعثة أسامة كما أمر رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ، ثم هو ذا رضى الله عنه وأرضاه يواجه المرتدين جميعاً كالأسد الهائج وهو يردد : « أينتقص الدين وأنا حى ؟ والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .. والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف بيدى ..»(٢)

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٩

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزى ٩٠

وقد شهد التاريخ كيف كانت عاقبة صدق الخليفة الراشد وغيرته على أمانة الله كاملة :

جاء فى البداية والنهاية(١) : «كان خروج أسامة فى ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فساروا لا يمرون بحى من أحياء العرب الا أرعبوا منهم ، وقالوا : ما خرج هؤلاء عن قوم الا وبهم منعة شديدة ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه » .

ولو قدر لاجيال المسلمين المتلاحقة أن تتلقى الاسلام كما تلقاه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة والتابعين ، وأن تغار غيرتهم على حرمات الله جميعا ، لظل السراج فى أيديهم يرسل نوره ، ولظلوا به على هدى مستقيم — «ولو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا»(٢) .

ولكن الوهن دب فى نفوس الضعفاء فتمزق كيان الأمة الاسلامية وانقسموا الى فرق مختلفة تنظر كل فرقة إلى الإسلام بمنظارها ، وكانت الثغرة التى نفذت منها الثقافات الدخيلة على الإسلام ، فوجدت طريقها سهلا بين هذه الاتجاهات المختلفة والمتضاربة ووجدت أصحابه كالمعتصم بزاوية بين جدارين من بيت عتيق تهدمت كل نواحيه ، فما أسهل أن يؤتى من كل ناحية ، بل ما أسهل أن يدفن حيا فى زاويته النائية — كما كانت هذه القطيعة السلاح الرهيب الذى استعان به أعداء الإسلام فى تمزيق شمل الأمة ، وإخفاء حقيقة الإسلام عن العيون والقلوب ليظل ساكنا بعيدا عن الحياة ، وبذلك مكنوا للفكرة الوطنية والقومية الدخيلة على روح الأخوة العامة بين المسلمين .

أصيب الإسلام بهذا الغزو الثقافى الخبيث الذى شوه معانيه ، وأصيب

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٢ صـ ٣٠

(٢) سورة الجن : الآية ١٦

المسلمون بهذه الفرقة التى أصبحوا بها طرقا وفرقا وجماعات ومذاهب ، فغابت وحدة الإسلام فى ذاته وتبددت وحدة المسلمين .

٢ — وحدة أحكام الشريعة :

وحدة أحكام الاسلام التى مزقتها هذه الحدود والاتجاهات المختلفة ، صفة تستلزمها طبيعة الإسلام وهى طبيعة يمكن أن نقرأها فى عنصرين :

(أ) — وحدة المصدر :

مرد أحكام الإسلام كلها الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهذه الشريعة تدعو إلى وحدة الدين باتباع رسول واحد ، جاء بأصول الدين الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، قال تعالى : «قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا»(١) ، ولما كان الإسلام دين الفطرة ، وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى «لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»(٢) .

وتدعو إلى وحدة التشريع بالمساواة التامة فى الحقوق بين جميع الناس الذين يخضعون لأحكامه لا فرق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف » .

«فشريعة الاسلام تدعو إلى المساواة بين أجناس البشر ، وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(٣) ،

(١) الإعراف : الآية ١٥٨ (٢) البقرة : الآية ٢٥٦

(٣) الحجرات : الآية ١٣

وقد بلغ النبي ﷺ ذلك فى حجة الوداع ، فتلا الآية ، وقال ما خلاصته : «انه ليس لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود فضل الا بالتقوى»(١).

هذه هى شريعة الله التى جاء بها خاتم الانبياء محمد ﷺ تدعو إلى التعارف والتأليف والعدل بين الناس ، وتحث على الفضيلة والانسانية ، ومشتقة من الفطرة الأنسانية ، ولذلك جعلها الله شاملة لاتختص بإقليم دون إقليم ، وليست للعرب وحدهم ولكنها للناس جميعا ، لأن الأساس الخلقى الفاضل الذى قامت عليه يعم العالم كله ولا يخص جنسا أو لونا أو أرضا معينة ، فهى تحقق الوحدة القانونية كما هى جامعة لمعانى الفضيلة .

والقصد من الوحدة التشريعة الوحدة التى تشمل الكليات التى لا تختلف فيها العقول ولا يختلف فيها معنى العدالة كالحدود والقصاص ، وغير ذلك من الأحكام التى جاء بها القرآن والسنة النبوية ، وهى كلها تدخل تحت دائرة العدالة والفضيلة ، وهما ثابتان فى كل الأرض ، وكذلك المساواة والكرامة الانسانية والحرية المضبوطة باحكام العقل والمصلحة الاجتماعية المانعة من الانطلاق والفوضى ، فهذه القواعد الكلية يجب تطبيقها فى كل الأرض حيث يسكن الانسان ويأمن على نفسه وماله فالشريعة تقوم على المصلحة فى كل الأمور الانسانية ، فما من أمر شرعه الإسلام بالكتاب والسنة الا كانت المصلحة ثابتة فيه .

وبينما شريعة القرآن تحقق الوحدة فى كل أمر من أمور الحياة وتدعو إلى التعارف والتآلف والعدل ، ترى القوانين الأرضية تفرض على الناس صورا تتنافى مع الفطرة والكرامة الانسانية .

فمن ناحية المساواة القانونية نجد شريعة القرآن قد نادت بالوحدة بين الجنس البشرى فالقرآن يقول : « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى

(١) الوحى المحمدى ، للاستاذ محمد رشيد رضا ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) والشرائع الوضعية كلها لم تعرف المساواة بين الأجناس والألوان ، بل لم تعرف المساواة بين آحاد الأمة الواحدة .

وترى فى هذه الصورة البيان الذى يدل على مدى الجور على حقوق الناس وخاصة الضعفاء والفقراء ، وهذا نص من القانون الرومانى : ومن يستهوى أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته ان كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله ، وان كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض »(٢) .

فما أعظم الفرق بين الشريعة الإسلامية ، والقوانين التى جعل الضعيف مأكولا ضائعا لاحق له لانها تستمد منطقها من القوة الغالبة ، وهذا ظلم لا يرضى عنه خالق الانسان والحياة . وسماه الله تعالى حكم الجاهلية ، ولذلك قال تعالى فى حق اليهود عندما طلبوا أن يحكم النبى على الشريف الزانى بغير العقوبة المقررة : « أفحكم الجاهلية يبغون . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »(٣) .

٢ — وحدة النفس الانسانية :

هدف الشرائع الالهية جميعا هو النفس الانسانية ، أى حقيقة الانسان فى أعماقه التى لا يراها غير صاحبها وعين الله الناظرة اليه ، والتى تنبعث منها خواطر الخير والشر ، وتكون من عندها الحركة الأولى نحو الخير أو نحو الجريمة : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(٤) .

(١) الحجرات : ١٣

(٢) مدونة جوستنيان ص ٣١٧ ترجمة عبد العزيز فهمى باشا

(٣) سورة المائدة الآية ٥٠

(٤) سورة الشمس : الآيات من ٧-١٠

فالإنسان مستعد للخير والشر ، والاستعداد للخير هو من إلهام روح الله الذى نفخه فى الإنسان . وأن الاستعداد للشر هو قابلية خصائص للانحراف عن الله ، وذلك من أحسن ماقيل فى تفسير قوله تعالى : «ونفس وماسواها»(١) الخ . فمن استقام مع إلهام الفطرة فهو المتقى ، ومن استجاب لغرائزه التى لا تتمالك ضل سواء السبيل وكان رسول الله ﷺ إذا قرا هذه الآيات قال : « اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها»(٢) .

والشهوات التى تؤدى إلى الفساد والأهواء تخالف العقل والمنطق والإرادة الحرة ، وإذا كانت الشهوات قد وردت فى مقام الذم على ألسنة الأنبياء والمصلحين ، فإنما ذلك يكون إذا تحكمت فى العقول وسيطرت على النفس . أما إذا كانت استيفاء لحاجات الجسم خاضعة للإرادة وليست سيداً مطاعا ، فإن ذلك هو الفطرة الإنسانية .

ولقد جاء الإسلام خاتماً للشرائع يضع للنفس الإنسانية المنهج الخالد للحياة الطاهرة الزكية إلى يوم ينفخ فى الصور وتتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .. وهذا المنهج يحافظ على خمسة أمور : هى المحافظة على النفس ، وعلى الدين ، وعلى النسل ، وعلى العقل ، وعلى المال ، وقد قال الإمام الغزالى فى كتابه المستصفى مانصه : «إن جلب المنفعة ودفع المضار مقاصد الخلق ، وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم ، لكنا نعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ، ومقصود الشرع من الخلق خمسة ، وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل مايتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل مايفوت هذه الأصول فهو مفسدة يجب دفعها...) (٣) الخ .

(١) الشمس : الآية ٧ (٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٦٥ .
(٣) نفس المرجع السابق ، المستصفى جـ١ ص ٢٨٧ :

وهذه الأصول لاتختلف فيها الشرائع سواء كانت شرائع يضعها البشر أم شرائع نازلة من عند الله سبحانه وتعالى ، وهى كأصول الأخلاق لا تختلف فيها البيئات ولا تنكرها العقول إلا إذا أصيب بداء عضال ، لأن العقل السليم ، يقر بداهة المحافظة على الدين والعقل والنسل والمال فأساس المنهج الإسلامى ليس الفرار من تبعات الحياة على «الأرض» ولكن أساسه مواجهتها وحملها والسير بها : «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه»(١) .

فالإنسان كادح فى رحلة الحياة لا يجد الراحة فى الأرض أبداً ، والتعب المفيد هو الذى يوصل إلى المنفعة والربح ، والعبرة بالنهاية ، ولذلك خير للإنسان أن يكون نافعاً فى كدحه على الأرض لنفسه ولأمته وخير للإنسان أن يكون نافعاً ومتألماً فى سبيل هذا النفع فى الدنيا لينال الخير فى الآخرة .

ومن هنا كانت صناعة الأخلاق الفاضلة عملا رئيسيا تروض له النفس فى شئون الحياة جميعا ، والرسول ﷺ يقول : «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(٢) .

ومن هنا أيضاً كان تنظيم شئون الحياة المختلفة بحيث تعين على الاحتفاظ بأخلاقه العالية أمراً تستوجبه طبيعة الإسلام ، وأصبح من الضرورى أن تكون العلاقة بين المسجد والبيت والشارع والمدرسة والصحافة وشئون السلم والحرب علاقة انسجام وتعاون على الخلق الرفيع ، ولا علاقة خصام وتدابر وتنافر ، والوحدة الأخلاقية بين هذه كلها — فضلا عن أنها علامة الصدق على إسلام الأمة واتجاهها إلى الله — هى الضمان الرئيسى لبقاء كل

(١) الانشقاق : الآية ٦
(٢) رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة جـ٢ مسند أحمد ص ٣٨١ .

فرد فى نفسه مسلما ، فإن للمسلم نفسا واحدة يدخل بها المسجد ويدرس بها فى المدرسة ، ويعيش بها بين الناس منتفعا ونافعا بأخلاق الإسلام ، ولن يغنى المسلم فى حسابه بين يدى الله أن يعتذر بدروس المسجد وأمانى الخير ودموع الحسرة على حال الإسلام والمسلمين ، فإن ميزان الله لا يعرف علماً بغير عمل ، وحسبنا فى ذلك ماروا ه صاحب المرافعات(١) فى الحديث الصحيح عن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ يقول عبد الرحمن بن غنم : «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن جلوس «ندرس» فى مسجد قباء فقال : «تعلموا ماشئتم أن تعلموا فإن الله لن يأجركم حتى تعملوا» .

ولا عذر للناس بعد أن أقام الله موازين العمل فى أحكام هذا الدين ، وجعلها أحكاما كلية لاضيق معها ولاحرج « وما جعل عليكم فى الدين من حرج» (٢) .

ثم إنك إذا أضفت إلى وحدة النفس الإنسانية فى تفاعلها مع شئون حياتها المختلفة طبيعة الحياة الاجتماعية فى تشابك هذه الشئون ، ورأيت كيف تستحكم حلقات الوحدة بين أحكام الإسلام جميعا .

إن الإسلام يقطع يدالسارق ، وهذا نص جنائى ، ولكنه لايقطع يد السارق الجائع ، إنه قبل ذلك يكفل له التعليم الذى يبين له أمر الله ، والمطعم والمسكن والملبس والتطبيب التى يعتبرها حاجات ضرورية لا تقوم الحياة الإنسانية إلا بها ، ويفرض على الحاكم المسلم أن يحقق ذلك لكل فرد ، إمابعمله أو بالزكاة إذا لم يجد عملا أو كان غير قادر على العمل أو كان دخل عمله لا يكفه ، وهكذا نرى ارتباط الحدود الإسلامية بحياة الناس لتزيل عن الناس الرذائل التى تفتك بالمجتمع ، وبالنفس البشرية .

(١) الموافقات للإمام الشاطبى ٢/٣٢٦ .

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

العبـــادة

والعبادة فى نظر الإسلام وسيلة لتطهير النفس وتربية الضمير الإنسانى ليأتلف المؤمن مع غيره من البشر فلاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف فحياة الاستقامة التى التزم بها المؤمن أمام خالقه جعلته يعيش سعيد النفس نقى الضمير لايكذب ولايغش ولايخون يريد بعمله إرضاء خالقه سبحانه وتعالى وهذه الأعمال التى يتميز بها المسلم أدوات تجمع ولا تفرق ، وتلبس المجتمع لباس الوحدة والنظام .

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى معنى العبادة :

العبادة : هى العبودية معنى وحقيقة . أنت عبد والله معبودك ، فكل ما يأتى به العند فى طاعة معبوده هو العبادة . فمثلا إذا كلمت الناس واجتنبت الكذب والغيبة والفحش والبذاءة فى كلامك معهم ، لأن الله قد نهاك أن تأتى بهذه الأمور ، وتحريت الصدق والعدل والمعروف والخير فى كلامك لهم ، لأن الله يحب هذه الأمور ، فكلامك هذا عبادة لله تعالى ، ولو كان كله عن شؤونك الدنيوية ، وكذلك إذا عاملت الناس ومشيت فى الأسواق مشتريا وبائعا ، وعاشرت أباك وأمك وإخوتك ، وأهلك ، وجالست أصدقاءك وذوى قربائك ، مراعيا فى كل ذلك أحكام ربك وقوانينه ، وأديت إلى كل ذى حق حقه ، لأن الله قدأمرك بأدائه إليه ، ومابخست أحد شيئاً من حقه ، لأن الله نهاك عن ذلك ، فقد قضيت حياتك هذه كلها فى عبادة الله تعالى ، وكذلك إذا أحسنت إلى مسكين أو نصرت مظلوما ، أو أطعمت جائعا ، أو واسيت مريضا ، عدكل ذلك من عبادتك لله تعالى . وكذلك إذا تعاطيت التجارة أو الصناعة أو اشتغلت بالخدمة وأديت ماعليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاء لله تعالى ، ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام كان كسبك هذا وسعيك فى سبيله عبادة لله تعالى ، مع أنك ماقمت بكل ذلك إلا لتكسب الرزق لنفسك» (١) .

(١) مبادى الإسلام أبو الأعلى المودودى ص ١١٠ ، ١١١ .

فالعبادة فى نظر الشرع هى : « العمل الصالح المطابق للشريعة قصدا على جهة الخضوع والتذلل الذى يبتغى به وجه الله تعالى وحده ، ومن أرفع أنواع العبادة الجهاد فى سبيل الحق والخير والعقيدة الصحيحة ففهوم العبادة يشمل كل أعمال البر التى دعا إليها الإسلام فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ما ظهر منها وما بطن .

فالمجتمع الذى يقوم على هذا الطهر فى المظهر والمخبر ، هو المجتمع الفاضل فى كل الأرض ، فالإسلام عندما يكلف البشر بعبادة الله الواحد المتصف بالكمال يطهر العقل الإنسانى ، من درن الوثنية ، ويحررها من الخرافات التى ترد العقل إلى خيال أو خبال ، وعندما يكلف المسلم بصور محدودة يقوم بأدائها تقربا إلى الله ، فطاعة ونظام وتربية للنفوس والجماعات ليتكون من ذلك الاجتماع الإنسانى مجتمع متآلف متحاب غير متنافر ولا متباغض وأن التربية الروحية تقوم على تربية الضمير ليكون صاحبه مؤتلفا مع الجماعة ملتقيا معها يؤثرها على نفسه ولو كانت بهم خصاصة ، ويحب الناس لله ويكون مستجيبا لقوله — ﷺ : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله »(١) .

فالعبادات التى شرعها الله لتربية الضمير عند ارتكاب معصية أو مقاربتها ، وللإحساس بالاطمئنان إذا كان متذكرا الله سبحانه وتعالى

(١) عن أنس قال : « قال رسول الله — ﷺ ، ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء ، لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار ، أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان جـ ١ ص ٩ ، ورواه مسلم جـ ١ ص ٦٩

كما قال : « والذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(١) .

فالعبادات لها أثر فى حياة الضمير ويقظته باعتباره مصدر الإلزام الخلقى وفى قو. الإراده باعتبارها أداة الضمير التنفيذية ، وجوهر السلوك .

فالعبادات لها أثر فى غرس عادات وتكوين فضائل خلقية معينة ، لأن الأثر الخلقى وثيق الصلة بالأثر الروحى ، وليكن مثالنا فى هذا المجال الصلاة .

الصلاة :

فالصلاة المحمودة : هى مناجاة بين العبد وربه وعهد منه لمولاه على طاعته والخضوع له فإذا أقامها الإنسان على حقيقتها كانت صونا له من كل زلل ، ومناجاة له من كل شر ، وجعلت صاحبها ربانيا لا يعمل إلا لله تعالى ، ويحب خلق الله تعالى ، فلا يبغض ولا يحسد ، ويعمل لإصلاح الناس ولا يظهر منه مايضر الجماعة أو يفسد المجتمع ، وصدق الله إذ يقول « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر »(٢) .

ويقول الدكتور / القرضاوى ، تحت عنوان « الصلاة قوة خفية »(٣) وفى هذه القوة مدد أى مدد لضمير المؤمن يقويه على فعل الخير ، وترك الشر ومجافية الفحشاء والمنكر ، ومقاومة الجزع عند الشر ، والمنع عند الخير ، فهى تغرس فى القلب مراقبة الله تعالى ، ورعاية حدوده ، والحرص

(١) سورة الرعد: ٢٨ (٢) سورة العنكبوت: ٤٥

(٣) العبادة فى الإسلام : الدكتور يوسف القرضاوى ص ٢٢١

على المواقيت والدقة فى المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى، وجوانب الضعف الإنسانى، وفى هذا يقول القرآن الكريم: «إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون»(١). . وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»(٢).

وما نرى من مصابين قد ضعفت أخلاقهم، أو انحرف سلوكهم فلابد أن صلاتهم جثة بلا روح وحركات جسم بلا حضور عقل، ولا خشوع قلب وإنما الفلاح للمؤمنين الذين هم فى صلاتهم خاشعون، أما المتظاهرون بالصلاة فما أحقهم بوعيد الله: «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون»(٣).

فالصلاة فى الأوقات الخمسة المتفرقة فى النهار وطرفى الليل، تجلو صدأ القلوب، وتهذب النفوس، وتربى روح الإخاء والمساواة، فصلاة الجماعة يجلس فيها الأمير بجوار الفقير، والشريف بجوار الضعيف، والغنى بجوار الفقير. ويلتقى الناس أمام الله تعالى وحده الذى يستوى الناس أجمعون عنده، وهم يحسون وهم فى الحضرة الروحية بأن الله تعالى يعلم سرهم وجهرهم وما يخفون وما يبدون، وأنه محاسبهم على مقتضى حكمته.

ويقول الشيخ شلتوت: «وكذلك بين القرآن أثرها فى تهذيب النفوس، ووقايتها من الفحشاء والمنكر، وتطهيرها من غرائز الشر، التى تفسد على الإنسان حياته: «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء،

(١) المعارج: ١٩ — ٢٣ (٢) العنكبوت: ٤٥
(٣) الماعون: ٤ — ٧

والمنكر»(١)، «إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون»(٢).

فالصلاة لا تكون محمودة وتعد عبادة إلا إذا كان فيها تذكير بالله تعالى، فإن سها عنه لا تكون صلاة مقبولة بل يذم صاحبها.

فالصلاة التى يذم صاحبها يلازمها أمران:

أولهما: السهو عن ذكر الله تعالى، وبذلك تفقد الصلاة خاصتها، وركنها القلبى.

وثانيهما: ألا يكون معه الضمير الذى يؤلف بينه وبين الجماعة التى تعيش معه، فلا يعاونهم فى حياتهم ولا يمد المحتاج منهم، ويقهر اليتيم إذ لا تكون منه الرحمة الواصلة، ولا إمداد ذى الحاجة بحاجته، فلا يطعم المسكين، ولا يحض على إطعامه، فلا يأتلف مع الناس ولا يألفونه.

وجميل أن يلتفت المسلم إلى صورة هذه الوحدة فى صلواته كل يوم وليلة، فهو ذا قائم فى المحراب يناجى ربه، حتى إذا أشرق قلبه بمعانى فاتحة الكتاب، وشرع يقرأ ما تيسر من القرآن.. رأيته يقرأ مرة آيات فى التقوى وحسن الخلق، ومره أخرى آيات فى الوصية والميراث وثالثة فى القانون المدنى، ورابعة فى القانون الجنائى، وخامسة فى أحكام القتال، والصلح والمعاهدات، والمسلم الذى يقرأ كل ذلك هو هو لم يتغير، وكل ذلك قرآن، أنزله الله الذى يقبل عليه بصلاته، ويسجد خاشعا لجلاله.

هذه هى الصلاة الركن الأول من أركان الإسلام تكسب صاحبها

(١) العنكبوت: الآية ٤٥ (٢) المعارج: ١٩: ٢٣

فى حياته الشخصية عادات صالحة وأخلاقا فاضلة وفى مقدمة ذلك النظافة والتجمل . . . وتعود عليه بالخير والطمأنينة فى دينه ودنياه ، وتغرس فى نفس المصلى الإحساس بالمساواة لأنه يرى الناس ينتظمون صفوفا متراصة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتراثهم وثقافتهم ، ونفوذهم لأن الإسلام ألغى فيها وفى غيرها الفوارق الاجتماعيـــة ، ولم يجعلها ميزانا للكرامة الإنسانيـة ، فالتقوى والعمل الصـالح هما أساس الحكم فى المجتمع الإسلامى .

إخوة الإسلام :

الإخوة أساس الوحدة فى الأمة ، فلا يمكن أن يكون هناك وحدة وتساند فى أى أمة من الأمم فقد فيها عامل الأخوة بين البشر ، فمن لا أساس له ضائع ومهدوم ، فكل جماعة لا تؤلف بينهـا آصرة المودة والمحبة والتآخى الحقيقية ، لا يمكن أن تتخذ حول مبدأ ما ، ومشاعر القربى والأخوة تنبعث أساسا من وحدة العقيدة والرب المعبود ، ولا يمكن اجتماع بنيان قائم أساسا على التنافر والانفصال ، فعقيدة التوحيد ذات مغزى كبير فى توحيد المؤمنين « إنما المؤمنون إخوة »(١) فالذين يتخذون أربابا متفرقين يورثهم ذلك الإحساس بالفرقة وبأنهم طوائف متباينـة لكل حزب وجهة هو موليها .

ودولة الإسلام قامت على أساس الرحمة الشاملة والمودة المقربة والعقيدة الثابتة والتشريع المتكامل الذى يجد الإنسان فيه نفسه ، ويحس معه بالكرامة الإنسانية العالية « لا لكونه شريفا نسبيا ، ولا لكونه أبيض أو أسود ،

(١) سورة الحجرات : ١٠

بل لكونه انسانا . قال الله تعالى : ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضلا(١) .

فالاخاء والمودة والرحمة لا تسود فى أمة ضاعت فيها كرامة الإنسان وتخبطت فيهـا الأفكار . وتناوشتها المذاهب الشتى ، وضل فيها القانون الذى يحكم ففرق فى حكمه بين الناس فنشأت الأحقاد ، وسيطرت البغضاء المنفرة . فكانت الفرقة المدمرة بدل الوحدة التى تلف الناس والمجتمعات بثوب العدالة والرحمة والمودة .

ولذلك كان للانسان فى كل نظام وضعـــه الإسلام بالقرآن والسنة النبوية يقوم على التوجيه الدينى ، يغذى نفوس الآحاد لتجتمع ، ونفوس الجماعات لتأتلف ، ونفوس الحكام ليعدلوا فى دولتهم ، وليعدلوا مع غيرهم ، وليعاملوهم بالمثل فى دائرة التقوى والفضيلة وليكونوا فى كل تصرفاتهم ، ملاحظين المعانى الإنسانية مع كل إنسان من غير نظر إلى اختلاف الأجناس والألوان .

هذا هو المجتمع الاسلامى الذى نشأ وترعرع فى أحضان النبوة ، يقول الشيخ الغزالى فيه : « كان الرسول ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة ، لم يتميز عنهم بلقب اعظام خاص »(٢) .

وفى الحديث : « لو كنت متخذا من أمتى خليلا لا تخذته — يعنى أبا بكر — خليلا — ولكن أخوة الإسلام أفضل »(٣) .

(١) سورة الاسراء : ٧

(٢) فقه السيرة للشيخ الغزالى ص١٩٣

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٤/٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ

ويقول أيضا : « الاخاء الحق لا ينبت فى البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل ، والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جلبوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادىء رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخى الوثيق فى ذات الله »(١) .

فالمجتمع المسلم قام على طهارة العقيدة والنفس ، ونظافة الظاهر والباطن وعلى القواعد الصحيحة التى تحفظ الحقوق لأصحابها ، وتبين الوجبات التى يجب على الإنسان أن يؤديها للأفراد والمجتمع ، فهو كيان متناسق ربى فيه الإسلام الجانب الروحى ، والمادى . لأن اكتمالها وتجانسهما وانسجامهما ، ينهض بالانسان إلى قمة الفضيلة فيستطيع أن يؤدى رسالته التى حمله الله إياها على خير الوجوه .

فالعنصر الروحى فى الإنسان ، هو الطريق إلى الصلة بالله ، وهو الذى يوجه الإنسان إلى طاعة ربه وامتثال أوامره . وهو الذى يرشد إلى الخير وإلى شتى الأعمال وأشرفها ويبصر الإنسان بما يقيه الشر والضلال .

وهذا العنصر الروحى أو النفسى له مظاهر ثلاث تهدف كل منها إلى غاية نبيلة فى الحياة ، وهى :

= الفكر : وغايته إدراك الحق .

= والإرادة : وغايتها الوصول إلى الخير .

= والوجدان : وغايته العواطف النبيلة وجمال النفس ،

ولهذه الأهداف فى الاسلام شأن كبير ، وله بها عناية واهتمام يقول

(١) فقه السيرة ص١٩٣ ، الشيخ الغزالى .

سبحانه : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » ويقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله »(١) ويقول جل شأنه : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا »(٢) .

ويقول سبحانه : « وما تنفقوا من خير يوف إليكم »(٣) ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير »(٤) .

والحق ينطوى على إشاعة العدل والمساواة والانصاف ، ويستهدف المحبة والوئام والعلاقات الطيبة بين الناس ، وللعواطف دور هام فى نشر الإخوة والتعاون والتراحم والمودة هذه الأسس إذا تحققت فى أى مجتمع كان مثالى ، ولو أن الأفراد والجماعات والشعوب حققت هذه المبادىء فى صدق وإخلاص وعزم قوى لصفت الحياة ومحيت بين الناس أسباب الحقد والظلم والاعتداء ، وانقلعت نوازع الشر والدمار ، وسادت الأخوة والسلام بين الشعوب والافراد .

والاسلام حث على السمو بتربية الفكر وتنمية الارادة وغرس نبيل العواطف .

١ — أما الفكر فأوضح سبيل هو ما حث عليه القرآن الكريم من النظر فى آيات الله فى الكون والنفس .

يقول سبحانه : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا

(١) سورة النساء : ١٠٥
(٢) المزمل : ٢٠
(٣) « البقرة : ٢٧٢
(٤) آل عمران : ١٠٤

تبصرون » . . « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم »(١) . . « فلينظر الإنسان مم خلق »(٢) . . « فلينظر الإنسان إلى طعامه »(٣) .

والنظر إنما يتم بالمعرفة الحرة وأعمال الفكر والاقتناع .

٣ — الإرادة فقد وجهها الاسلام إلى الخير فى جميع صوره وأوضاعه كالاحسان والبر والتعاون والصدقة والقرآن الكريم يقول فى أصول هذه الفضائل : « أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب »(٤) . . « أن الله يأمر بالعدل والاحسان »(٥) .

إلى غير ذلك من الآيات التى تضمنت أصـــول الفضائل كالعدل ، والاحسان والوفاء بالعهد .

٣ — وأما الوجدان وتوابعه من عواطف تغذى النفس وتغذى الروابط فقد أحكم الله أواصرها بين الإنسان ووالديه ، وذوى قرباه وجاره البعيد والصاحب بالجنب ، وجعل المودة أساسا للترابط فى الاسرة ثم بين جميع الناس ، وكل هذا يجعل الحياة الإنسانية هادئة راضية مرضية

ومجتمع تسوده هذه الأوصاف مجتمع قوى نظيف متعاون على البر والتقوى .

وقد وضع الاسلام للعنصر المادى فى الإنسان نظاما يعود عليه بالنفع ، ويبعده عن الضرر بنفسه ، والاضرار بغيره ، يقول سبحانه : وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ويقول جل شأنه . . « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه

(١) سورة ق : ٦ (٢) سورة الطارق : ٥
(٣) « سورة عبس : ٢٤ (٤) « البقرة : ١٧٧
(٥) « الرعد : ١٩ ، ٢٠

لحما طريا »(١) ويقول جل شأنه : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا »(٢) .

فالإسلام قد نظم حياة الإنسان بقسميها الروحى والمادى ، حتى يتلاءم مع الحياة ويعيش مع من حوله فى سعادة واطمئنان وإخوة لا يرى إلا بنور الله ، ولا تذهب نفسه إلا إلى فضائل الأعمال .

فإذا عاش المجتمع الإنسانى هذه الحياة وتلاشت الأنانية من حياتهم ، صفت النفوس وضاع الحقد ، الذى يورث الكراهية ، وتبدلت حياة الفزع ، والارهاب ، إلى جنة خضراء فيها الأمن والأمان والسلام .

والله سبحانه المسئول أن يحقق الآمال ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

(١) سورة النحل : ١٤ (٢) سورة البقرة : ١٦٨

ابن خلدون :

فابن خلدون فى البداية يؤكد ترابط الوجود واتصال بعضه ببعض .

يقول : « إعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته »(٤٧) .

ويقول : « وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجسمانى وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى مايليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الأوقات والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهى إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل »

ويسند ابن خلدون تدرج الموجودات على هذا النحو العجيب إلى قوة خارجة عن الأجسام، قوة روحانيه تستمد وجودها من وجود آخر ويعنى به الملائكة على النحو الذى ذكره إخوان الصفا .

قال : « ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر وفى عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم فى وجودها ولذلك هو النفس المدركة والمحركة .

ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل

أيضاً ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضاً وهو عالم الملائكة ،

ويبلغ ابن خلدون إلى درجة يكرر فيها ماقاله من قبله ابن مسكويه وإخوان الصفا فيقول (٤٨) :

« ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ،

واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذه غاية شهودنا »(٤٨)

ولعل النقطة الجديدة التى حاول ابن خلدون أن يضيفها هنا هى تفسيره لمعنى الاتصال الذى أشار إليه من قبله إخوان الصفا وابن مسكويه .

قال : « ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذى يعده »

فالاتصال المقصود — كما أوضحنا من قبل — هو مجرد الاستعداد عند المخلوق المستقل الذى جاء فى نهاية سلسلة الجنس والنوع

فالنخل والكرم الذين هما أرقى أنواع النبات بالنفس مستعدبالاستعداد الغريب الذى هو النفس لا التكوين العضوى أن يصير أول أفق الحيوان وهو الحلزون أى أن المخلوقين متشابهان بالنفس

وليس فى عبارة ابن خلدون أو إخوان الصفا أو ابن مسكويه مايشير إلى إمكان انقلاب النخل إلى حيوان الحلزون أو انقلاب القرد الذى هو أرقى أنواع الحيوان إلى إنسان ، فالاستعداد شىء والانقلاب الفعلى شىء آخر .

وذلك على خلاف مافهم الأستاذ إسماعيل مظهر إذ قال فى تعليقه على نص ابن مسكويه — الذى نقلناه من قبل — تلك هى المراتب الانتقالية التى ذكرها ابن مسكويه فى نشوء بعض الأحياء من بعض .

والواقع أن ابن مسكويه ذكر بلغة قاطعة تمنع هذا الاستنتاج حين قال ما نقله الأستاذ إسماعيل مظهر نفسه « مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الإنسان فى خلقة الإنسانية وليس بينهما إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا » .

فهناك إذن مرتبة يسيرة لم يتجاوزها القرد فكيف يقول الأستاذ مظهر بنشوء هذا من ذاك ؟

كما قال الأستاذ مظهر فى تقدمته لنص ابن خلدون قال (يعنى ابن خلدون) فى تفسير حقيقة النبوة شارحا تسلسل بعض الأحياء من بعض .

والواقع أن نص ابن خلدون لا يتحدث إطلاقا عن تسلسل بعض الأحياء من بعض بل يتحدث عن مجرد الاتصال ، وفسر الاتصال بأنه الاستعداد فقط فكيف يفهم الاستعداد على أنه تحول حقيقى وكامل من القردة إلى الإنسان؟

كما أن ما استنتجناه من نصوص ابن خلدون تجعلنا نقطع بأنه لا يختلف عن إخوان الصفا وابن مسكويه، على عكس مافهم الدكتور على عبدالواحد وافى الذى ذهب إلى أن ابن خلدون تميز عن المفكرين الإسلاميين باقترابه عنهم إلى نظرية داروين بتقريره أن آخر كل أفق من الموجودات متصل بأول الأفق الذى يعلوه (٤٩).

وقد فهمنا أن معنى الاتصال الذى يريده ابن خلدون لا يعنى الانقلاب أو التحول ، وإنما يعنى التشابه بالنفس .

على أن ابن خلدون نفسه عنون أفكاره فى هذا الموضوع كله - وقد أورده فى سياق تفسير حقيقة النبوة - بأنه «على ماشرحه كثير من المحققين» فهو يعترف بأن أفكاره على حسب ماشرحه الكثير من المحققين وبالفعل كما قال وكما قارنا النصوص بالنصوص فإنه يشرح نظريته فى هذا الشأن على ماشرحه إخوان الصفا وابن مسكويه .

وإذا كان هذا رأى فلاسفة الإسلام فى أهم عنصر من عناصر فكرة التطور عند «داروين» وهو نشوء الأحياء بعضها من بعض ، فقد صرح إخوان الصفا بالخلق المستقل للإنسان من غير تطوره من أى حيوان آخر سبقه .

قالوا فى خلق الإنسان « فبدأ أولا ربنا تعالى فبنى لخليفته هيكلا من التراب عجيب البنية ظريف الخلقة مختلف الأعضاء كثير القوى ثم ركبها وصورها فى أحسن صورة من سائر الحيوانات ليكون بها مفضلا عليها مالكا يتصرف فيها كيف يشاء ثم نفخ فيه من روحه فقرن ذلك الجسد الترابى بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها ليكون بها متحركا حساسا دراكا علاما فاعلا لما يشاء(٥٠) » .

ولم يرد على لسان ابن مسكويه أو ابن خلدون ماينا قض هذه الفكرة .

أما بقية عناصر فكرة داروين فلم يجد فلاسفة الإسلام حرجا من القول بها فى إطار فعل الخالق المبدع سبحانه .

فنظرية الانتخاب الطبيعى والتناحر على البقاء التى يرى فيها داروين — كما أسلفنا — أن الطبيعة تسرف فى الإيجاد كما تسرف فى الإفناء وأنه لو لم

يكن هناك تناحر على البقاء بحيث يبقى الكل ، لامتلأ وجه الأرض ، يؤمن بها ابن مسكويه تماما فيقول : —

«فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم يتهيأ الوجود إلينا ، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا ولو بقى من تقدمنا من الناس على ماهم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض(٥١)»

ولكن ابن مسكويه يسند ذلك إلى الحكمة فى التدبير الإلهى ، يقول بعد ذلك مباشرة : فإذ الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الإلهى هو الصواب الذى لامعدل عنه ولا محيص منه وهو غاية الجود الذى ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد ، أو راغب مستفيد (٥٢)»

أما عن العلاقة بين البيئة والكائن الحى فذلك أمر يسلم به فلاسفة الإسلام ، على أن يسندوه إلى الخالق الحكيم

ففى حوار رمزى أمام الملك وواحد من بنى الإنس وزعيم البهائم قال زعيم البهائم : إن الله عز وجل لما خلق آدم وأولاده عراة بلا ريش على أبدانهم ، ولا وبر ولا صوف على جلودهم يقيهم من الحر والبرد وجعل أرزاقهم من ثمر الأشجار ودثارهم من أوراقها وكانت الأشجار منتصبة فى جو الهواء جعل أيضا قامتهم منتصبة يسهل عليهم تناول الثمر والورق منها وهكذا لما جعل أرزقنا من حشيش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية ليسهل علينا تناول العشب من الأرض ، فلهذه العلة جعل صورهم منتصبة وصورنا منحنية(٥٣)»

...فقال الإنسى لزعيم البهائم : من أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة ، وقد نرى الجمل عظيم الجثة طويل الرقبة صغير الأذنين قصير الذنب ، ونرى الفيل عظيم الخلقة طويل النابين واسع الأذنين صغير العينين ونرى البقر والجاموس طويل الذنب غليظ القرون ليس له أنياب

من فوق ، ونرى الكبش عظيم القرنين ، كبير الإلية ليس له لحية ، والتيس طويل اللحية ليس له إلية ، مكشوف العورة ، ونرى الأرنب صغير الجثة ، كبير الأذنين . وعلى هذا المثـــال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهوام مضطربات البنية غير متناسبة الأعضاء .

فقال زعيم البهائم : هيهات ، ذهب عليك أيها الإنسى أحسنها وخفى عليك أحكمها ، أما علمت أنك لما عبت المصنوع فقد عبت الصانع ؟ أو لا ترى وتعلم بأن هذه كلها مصنوعات البارى الحكيم خلقها بحكمته لعلل وأسباب وأغراض لجر المنفعة إليها ودفع المضرة عنها ولا يعلم ذلك إلا هو والراسخون فى العلم »(٥٤) .

فالعلاقة بين الكائن الحى والطبيعة ليست من فعل الطبيعة ، كما يقول داروين . وإنما هى عند إخوان الصفا والمفكرين الإسلاميين من فعل الخالق ، وإن كانت لتحقيق نفس الغرض وهو ملاءمة الكائن الحى مع طبيعته ،

ولذلك يستطرد إخوان الصفا فى بيان هذه الملاءمة قائلين (بنفس الأسلوب الرمزى) :

« قال الإنسى : خبرنا أيها الزعيم إذا كنت حكيم البهائم وخطيبها ما العلة فى طول رقبة الجمل ؟ قال : ليكون مناسبا لطول قوامه لينال الحشيش من الأرض ، ويستعين به على النهوض بحمله ، وليبلغ مشفره إلى سائر أطراف بدنه فيحكها ، وأما خرطوم الفيل فعوض عن طول الرقبة ، وكبر أذنيه ليذب البق والذباب عن مآقى عينيه وفمه ، إذا كان فمه مفتوحا أبدا لا يمكنه ضم شفتيه لخروج أنيابه منه ، وأنيابه سلاح له يمنع بها السباع عن نفسه .

وأما كبر أذن الأرنب فهو من أجل أن تكون دثاراً له ووطاء وغطاء فى الشتاء والصيف ، لأنه رقيق الجلد ترف البدن .

وعلى هذا القياس نجد كل حيوان جعل الله عز وجل له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه لجر المنفعة أو دفع المضرة وإلى هذا المعنى أشار موسى عليه السلام بقوله « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى (٥٥) » .

وإذا كان إخوان الصفا قد قالوا بالملاءمة بين الكائن الحى والطبيعة التى يعيش فيها ، فقد أشار ابن مسكويه إلى هذا التأثير فى الصفات العقلية والبدنية مؤكداً أن الطبيعة — كما قلنا من قبل — موكلة من الله عز وجل ، فالفعل فعل الله فى النهاية

يقول ابن مسكويه : « فأواخر الترك وأواخر الزنج (لعله يقصد أقاصى شمال بلاد الترك) وأشباههم لا يتميزون من القرود إلا بمرتبة يسيرة ثم تتزايد قوة التمييز والفهم كلما اقتربنا من وسط الأقاليم فيحدث فى أهلها الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات (٥٦) » .

كما ذكر ابن خلدون أثر البيئة على الكائن الحى وتناقل الأثر بالوراثة عن الأجيال ، فهو يفسر سواد البشرة فى أقاليم السودان بأن الشمس تسامت رءوسهم مرتين فى كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسافة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد وتسود جلودهم لإفراط الحر .

ويرى ابن خلدون أن البيئة الخصبة وما يتبعها من كثرة الأغذية التى تزيد رطوبات الأخلاط الفاسدة والفضلات الرديئة فى المعدة وتؤدى

إلى انكساف الألوان وقبح الأشكال، وتورث البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال .

ويستشهد ابن خلدون على ذلك قائلا ، واعتبر ذلك فى حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعى الخصبة. كيف تجد بونا بعيداً فى صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مدار كها، فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينهما مارأيت، وماذاك إلالأجل أن الخصب فى التلول فعل فى أبدان هذه من الفضلات الردية والأخلاط الفاسدة ماظهر عليها أثره. والجوع لحيوان القفر حسن فى خلقها وأشكالها ماشاء. واعتبر ذلك فى الآدميين أيضا فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزوع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم ،(٥٧) .

ويشير ابن خلدون إلى أثر الوراثة فيقول :

« وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم وفى ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء»(٥٨)

(ب) مواضع الاتفاق والخلاف بين داروين والمفكرين الإسلاميين :

فى ضوء ماتقدم من عرض فكرتى التطور فى نظر داروين، وفى نظر المفكرين الإسلاميين، نستطيع أن نعثر على نقاط تشابه بين الفكرتين، ونقاط خلاف .

فمن نقاط التشابه الواضحة :—

١ — القول بأثر البيئة على الكائن الحى هذا الأثر الذى يصل إلى حد تشكيل صورة الحيوان أو الإنسان وإكسابه لونا أو تفكيراً ماكان له أن يكتسبه لولا البيئة ، بحيث لو انتقل الكائن الحى إلى بيئة أخرى فإنه يكتسب لونا وتفكيراً مغايراً .

٢ — ومن نقاط التشابه أيضا : القول بانتقال الصفات الطارئة بفعل البيئة بالوراثة إلى الأعقاب والأجيال التالية إلى مدى معين لا يتعدى بعض الصفات مثل اللون ،والقوة البدنية ، والتفكير ،

٣ — ومن نقاط التشابه أيضاً: اتفاقهم على ترتيب الموجودات لا فى الأفضلية فقط بل فى ترتيب الوجود كذلك .

فداروين كما رأينا يرى أن أول الموجودات كانت الخلية الأولى التى نشأت منها الكائنات أولا فأول الحيوانات المائية ثم البرية إلى أن انتهى الوجود بالإنسان .

كما قال إخوان الصفا إن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان فى بدء الخلق ، وذلك أنها تتكون فى زمان قصير والتى هى تامة الخلقة تتكون فى زمان طويل .

ونقول أيضا إن حيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر فى بدء الخلق» .

وكذلك قال ابن خلدون بتدريج الوجود صعودا من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار . وعالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج .

٤ — كذلك من نقاط التشابه: التناحر على البقاء .

فبين الموجودات صراع على البقاء مع الطبيعة ومع إفراد النوع نفسه ومع الأجناس الأخرى .

فكل فرد يشعر بأن ثمه صلة جدلية بينه وبين أفراد نوعه وجنسه، وبينه وبين الموجودات الأخرى فى الطبيعة .

وقد أوضح الفارابى الحاجة إلى نظام ينظم علاقات البشر ومعايشهم وإلا اضطروا إلى التنازع والصراع .

كما أكد ابن مسكويه أن العدل ضرورة لحفظ الوجود الإنسانى من الصراع والجور .

بل إن الفلاسفة الإسلاميين جميعا سواء كانوا من أصحاب نظرية التطور أو من غيرهم متفقون على أن التنافس بين الأحياء عامة وبين البشر خاصة ناموس كونى .

والإسلام يرى أن التدافع بين الناس غريزة من غرائز الإنسان وسنة من سنن الله توظف لصالح البشر أنفسهم يقول تعالى «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»(٦١) .

ولذلك فإن الإسلام يقيم أسس العدل والتعاون ويفصل الحقوق والواجبات تفصيلا يهذب هذا التدافع ويوجهه لخدمة البشرية .

أما ما يسميه الانتخاب الطبيعى فالفلاسفة الإسلاميون يوافقون على أن الطبيعة لا تفعل وحدها أفاعيلها فى بدن الكائن الحى، وإنما الطبيعة موكلة من الله عز وجل .

فالإنسان يخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم يبلغ أشده ويمتد أجله حتى يصير كهلا لا يعلم بعد علم شيئا ثم يبلغ أجله ويعود كما بدأ ترابا .

• وإذا كانت هذه أهم نقاط الاتفاق بين داروين والفارابى وابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون، فإن بينه بينهم وراء ذلك اختلافات جذرية .

١ — وأهم هذه الاختلافات أن داروين فى أساس نظريته تجاهل كل دور للإله فى إحداث النشوء ومراحل الارتقاء .

فالحياة بدأت فى الخلية الأولى لكن «داروين» لا يفسر كيف بدأت ؟ ومن أين ؟ كل ما يذكره أن اعتدال المزاج وتوافر خصائص الوجود وشرائط الحياة توفرت لهذه الخلية فدبت فيها الحياة .

ولذلك رجح القول بالصدفة أمام كل من يتصل بنظريته ويحاول فهمها أو شرحها، وإن كان هو نفسه لم يقل بالصدفة لكن تركه للحظة بدء الحياة دون تعليل جعل الفرصة قوية أمام هذا الاحتمال .

لكن الفلاسفة الإسلاميين كانوا منذ البداية حريصين على التأكيد أن الله عز وجل هو الصانع المبدع الذى أودع فى كل كائن طبيعته الفاعلة بإرادة الله وفق سننه الثابتة التى تعمل باطراد لا يتخلف .

٢ — وثانى الاختلافات المهمة بين النظريتين: أن «داروين» كان واضحا فى تأكيد نشوء الأحياء بعضها من بعض، لكن فلاسفة الإسلام — كما عرضنا

نصوصهم — لم يصرحوا بهذا، بل صرحوا بالخلق المستقل لهذه الكائنات كل منها على حدة، دون أن يتحول أو ينشأ كائن عن كائن آخر قبله .

واستحالة كائن إلى كائن آخر كما يعرفها فلاسفة الإسلام إنما تكون مثل استحالة التراب ومكوناته إلى نبات، واستحالة النبات عندما يتغذى به الكائن الحي إلى لحم ودم، واستحالة الحيوان بعد فساده إلى تراب مرة أخرى ليكون منه نبات جديد، وهكذا في دورة دائرة يستحيل بعضها إلى بعض .

هذا هو التحول الوحيد المفهوم من كلام ابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون، أما التحول على طريقة «داروين» فلم يرد في كلامهم ما يصرح به على الإطلاق .

(ح) الإسلام ونظرية التطور :

كانت فكرة داروين منذ أن ظهرت عاملا من عوامل القلق، إن لم نقل إنها كانت عاملا من عوامل الإلحاد، إذ أنها باعتمادها التطور الطبيعي الأحياء بعضها من بعض دون حاجة إلى خلق مستقل كانت أقرب إلى إنكارها دور الإله في خلق الأجناس والأنواع، في الوقت الذي يتبادر لأول وهلة من نصوص الأديان أن هناك خالقا خلق كل كائن خلقا مستقلا وبيديه خاصة الإنسان يقول الله تعالى « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»(٦٠).

وقد هب المدافعون عن الأديان منذ ظهور النظرية للاعتراض عليها وإنكارها باسم الدين .

لكنه بمرور الأيام ودفاع المؤمنين بالنظرية ومحاولتهم توضيح موقفها من خلق الإنسان على الخصوص وأنها عند فهمها — كما يقولون —

لا تصادم العقائد الدينية بل قد تكون هي عاملا من عوامل تقوية العقيدة .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي : « أما من الوجهة الدينية فإن ثبوت تسلسل الأنواع بعضها من بعض لا ينفي العقيدة بوجود الخالق، بل إن في تسلسلها من أصل واحد دلالة أكبر على حكمة الخالق وعظم قدرته كما قال ذلك داروين نفسه(٦١)».

وبين مؤيدي المذهب وأبرزهم « شيلي شميل » ومعارضيه وأبرزهم الشيخ جمال الدين الأفغاني في رسالته الشهيرة « الرد على الدهريين »، والشيخ محمد رضا آل العلامة التقي الأصفهاني في كتابه « فلسفة داروين (٦٢) ». يقول الأستاذ العقاد : ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا دينيا وعلميا، في إنكارهم باسم الدين أموراً لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفي ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن إثباتها بما يقطع الشك فيها، كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم (٦٣) ».

ويبدو العقاد وجلا يتوجس خيفة مما تسفر عنه الأبحاث العلمية في المستقبل من احتمال ثبوت صحة النظرية، ولذلك يرى أن التعجل في إنكارها باسم الدين تعجل وخيم العاقبة قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث في نشر كشوفه المتوالية، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدي للمباحث العلمية، وهي في معرض التحقيق بين الإثبات والنفي أو التغليب والاستضعاف وقد علم رجال الدين في الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس وإيجابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض، كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك « وكل في فلك يسبحون (٦٤)».

ولذلك ينتهى العقاد إلى القول « وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم فى أية وجهة من هذه الوجهات » (٦٥).

وفى اعتقادنا أنه لا محـــل لتخوف الأستاذ العقاد إذا نحن فحصنا النظرية من وجهة الإيمان حتى مع افتراض صحتها، فإن صحت كان بها ، وإن ثبت خطؤها فقد كفى الله المؤمنين القتال .

ولسنا نقف عند الانتقادات التى يمكن توجيهها إلى نظرية داروين ، فهى كثيرة فى مجالات عديدة ، ولكننا نكتفى هنا بالانتقادات التى توجه فى مجال علاقتها بالدين .

وفى هذا المجال فإننا نقف عند فكرتين هما فى الحقيقة — وكما أوضحنا — أساس النظرية .

١ — فكرة نشوء الحياة فى الخلية الأولى .

٢ — فكرة تطور الأحياء بعضها من بعض ، دون خلق مستقل لكل منها على حدة .

١ — ففيما يتعلق بالفكرة الأولى: فقد تجاهلت نظرية داروين تفسير مصدر الحياة فى هذه الخلية التى تطورت عنها كل الأحياء .

هل هى من إله ؟ أو هى من الصدفة ؟ أو هو التولد الذاتى من اعتدال المزاج وخصب التربة وتخمرها ؟

والواقع أن ترك هذه النقطة دون تحديد مصدر الحياة يجعل النظرية غير مقبولة ، حتى وإن قبلت تصوراتها بعد ذلك فى تسلسل الأحياء من مصدر واحد هو الخلية .

وإغضاء النظرية عن دور الإله ، ونشوء الحياء وتطورها على هذا النحو الذى نراه أو على النحو الذى فسره داروين مع الإغضاء عن هذا الدور يجعل النظرية قائمة كلها على تجاهل دور الإله، وتقوية احتمال نشأة الحياة من الصدفة ، أو التولد الذاتى .

ولسنا نوافق الأستاذ العقاد على أن هذا المذهب أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير .

ذلك أنه إذا كان تفسير نشأة الأنواع بالطبيعة البحتة الأنواع، دون ذكر لدور الخالق. فأين يجد الملحدون سنداً أقوى من هذا لإنكارهم دور الإله ؟ .

ولئن قبل المؤمنون نشأة الأنواع بعضها من بعض كما يقول «داروين» فكيف يقبلون نشأة الحياة منذ البداية بغير وجود إله يكون هو مصدر هذه الحياة ؟ .

إن داروين نفسه — كما أورد الأستاذ العقاد — لم يكن متيقنا من وجود إله تيقنه من نشوء الأحياء من بعضها، ونشوئها جميعا من الخلية الأول .

نقل العقاد أن داروين كتب فى ١٨٩٧ إلى الأستاذ فراديس، صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله « إنى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحداً إذا كان معنى الملحد إنكار وجود الله ، وأرى على العموم — وبخاصة مع تقدم السن — أننى أحرى أن أسمى (لا أدريا) وأن هذا الاسم أقرب إلى الصواب فى وصف تفكيرى » .

وقال فى خطاب كتبه إلى طالب هولندى ، فى الثالث من إبريل ١٨٧٣م « . . . يبدو لى أن استحالة القول بأن هـــذا الكون العجاب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الواعى إنما كان وليد المصادفة هو أكبر سند للقول

بوجود الله، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة إقناعه، كما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التي تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام»(٦٦).

ولذلك كان الرأي المنصف أن النظرية في هذه النقطة تسع المؤمنين والملحدين على السواء.

فالمؤمنون يجدون فيها آية على عظمة فعل الخالق حين ينشىء الأحياء على كثرتها وتنوعها واختلافها من البساطة إلى التعقيد من خلية واحدة.

ذلك أن المؤمنين يسندون كل شيء إلى الخالق، فإن أسندوا التطور إليه لم يكن عليهم من بأس أن يقبلوه.

والغريب أن «داروين» في غمرة قلقه ولا أدريته كان يعتقد أن مذهبه لا يقتضي من العقل أن ينفي وجود الله ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده، وأن الإيمان بأي ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول (٦٧).

وكان «الفريد ولاس» شريك داروين في نظريته على عكسه تماما في هذه النقطة إذ كان مؤمنا قوي الإيمان بوجود الله وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا في تصديقه بالمعجزات (٦٨) لأن المعجزات لا تجري على المجرى الذي عهده صارما ومطردا في الطبيعة.

ومن أحدث ما تناوله المؤمنون لنظرية داروين ما يقوله الدكتور حسن حامد عطية (٦٩) في التعليق على قوله تعالى «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق؟» الذي يعني أن الحياة قد بدأها الله من العدم مرة واحدة».

وفي محاولته لتطويع النظرية للإيمان يقول «هل نشأت الخلية الأولى للحياة صدفة، كما يقول الملحدون؟»،

يجيب على ذلك السيد «فريد هويل»، عالم الفلك الشهير وزميل له أستاذ في الرياضيات في كتاب ظهر لهما ١٩٨١ يعترفان فيه صراحة بأنهما ملحدان ولا ينتميان إلى أي دين إلا أنهما بعد حسابات رياضية دقيقة ومعقدة لم يجدا لهذه الصدفة أثرا إلا بمقدار واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر.

«وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق الصدفة بل لا بد من وجود عقل مدبر يفكر ويبدع لهدف معين، وعلى الرغم من اعترافهما بإلحادهما فإنهما لا يجدان أمامهما مفرا من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان «الله(٧٠)».

وهنا يجب أن نلاحظ أن المؤمنين الذين يطوعون نظرية داروين للإيمان ويتناولونها مثل هذا التناول، فإنهم يتناولونها من وجهة نظرهم هم، ويكادون حين يتحدثون عنها بهذا الشكل يتحدثون عن نظرية جديدة خاصة بهم. وليست هي نظرية داروين في الأساس.

٢ ـ أما الأساس الثاني للنظرية، وهو إنكار الخلق المستقل وافتراض أن الأحياء نشأت بعضها من بعض وتطورت جميعها من خلية واحدة، فذلك فرض تقوم في وجهه هو الآخر عقبات رئيسة من وجهة الدين.

وبقطع النظر عما يعترض هذا الفرض من صعوبات من وجهة نظر علماء الأحياء أهمها: أين الحلقات المفقودة في مسلسل التطور؟.

فمثلا إذا كان القرد قد تطور إلى إنسان قردي أو قرد إنساني أولا ثم تطور هذا القرد الإنسان أو الإنسان القردي إلى إنسان في النهاية، وإذا كنا نعلم أن القرد ما زال باقيا وكذلك الانسان فأين ذلك القرد الإنساني أو الإنسان القردي إذن؟ إنها حلقة مفقودة في تاريخ الأحياء؟ ولماذا

تلاشت هى بالذات ؟ لماذا تلاشى ذلك القرد الإنسان أو الإنسان القردى وبقى ماقبله وما بعده فى سلسلة التطور ؟ .

وليست تنفع الإجابة بأن اختفاء تلك الصور المتوسطة سببه شدة تنازع البقاء على حسب اختلاف الأوساط والأحوال(٧١)، لأن القرد إذا استطاع أن يثبت ويبقى رغم عوامل تنازع البقاء فكيف لا يبقى القرد المزود ببعض إمكانات الإنسان على البقاء ؟ .

ولذلك كانت ظواهر النصوص الواردة عن الخلق فى الأديان ترجح الخلق المستقل، على تسلسل المخلوقات .

فالنصوص القرآنية والنبوية يفيد ظاهرها المتبادر منها إلى أن آدم خلق من طين ثم خلق أبناؤه بعد ذلك من ماء مهين .

يقول تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» .

وإذا كان أنصار النظرية ، يؤولون النصوص بأنها تتحدث عن الخلق الأول، وأنه لما كانت الخلية الأولى من طين وأن آدم صورمنها بعد مراحل من التطور وهذا لا يتعارض مع القرآن .

فإنا نقول إذا استطاع المؤولون أن يؤولوا آيات القرآن فماذا يفعلون فى الأحاديث النبوية التى تفيد بأن حـــواء خلقت خلقا مستقلا من ضلع آدم .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ استوصوا بالنساء ، فان المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شىء فى الضلع

أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء »(٧٣) .

حتى الآية الكريمة التى تتحدث عن خلق الناس من نفس واحدة، مثل قوله تعالى « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة» فالخطاب فيهـــا للناس لا لجميع المخلوقات حتى تكون هذه قد نشأت من نفس واحدة .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يدرك أنه يفسر بعضها بعضا ، ويفسر النفس الواحدة بأنها آدم فى قوله تعالى « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها».

حتى إذا استطاع المؤولون أن يجدوا فى المستقبل وجها لتأويل هذه الأحاديث ، فان هناك صعوبة أخرى فى التوفيق بين هذه النظرية والدين؛ ذلك أن داروين كما تجاهل دور الإله فى بدء الحياة فقد تجاهل دوره فى التطور التالية منذ تطورت الخلية الأولى حتى انتهت إلى قمة التطور بوجود الإنسان ، إذ لم يفسر هذا التطور دوافع هذا التطور (العلة الغائية) ولا من وراءه (العلة الفاعلة) .

فإذا كان قد فسر كيف يتم التطور وقال بأنه انقلاب يحدث أو طفرة تتم تناقلتها الأنواع بعد ذلك بالتدريج عن طريق الوراثة فلماذا هذه الطفرة؟ ومن يحدث هذا الانقلاب؟

هل يحدث بفعل طبيعة الأحياء نفسها ؟ .

أو يحدث بفعل فاعل حكيم يفعل فعله فى الطبيعة ، بخطة محكمة ، ويوجه هذا الفعل نحو غاية مقصودة ؟ .

المفهوم من نظرية «داروين» كما شرحها فى كتابه « أصل الأنواع » الاحتمال الأول، وأن طبيعة العناصر والمكونات فى الأحياء نفسها هى التى

تحدث الانقلاب لأنه — كما سبق أن قال — ليس مستيقظا أصلا من وجود الإله ولم يستطع أن يتبين دوره فى تطور الأحياء .

وإذا كان المؤمنون يتناولون النظرية فى هذا الجانب بإسناد مراحل التطور إلى الله كما يقول الدكتور حسن حامد عطية :

« إننى لا أرى وجها لأن يفزعج رجال الدين من لفظ التطور .

فإذا كان سبب انزعاجهم هو ما يحاول أن يضيفه الملحدون على التطور قائلين إنه طالما يحدث بالانتخاب الطبيعى فإن معنى ذلك هو عدم وجود الخالق إذا كانت تلك حجتهم فيمكننا الرد بأن الانتخاب الطبيعى يحدث نتيجة أمرين : —

أولهما : الصفات التى يضعها الله سبحانه فى النوع الواحد والتى يقوم بتغييرها تدريجياً أو فجائياً .

وإذا كان رأى « جود والبردج » بحدوث التطور بقفزات موقوتة صحيحاً، فلابد من وجود الهادى لهداية تلك المخلوقات التى تتغير فجأة للطريقة الذى تسلكه نحو نوع جديد .

أما الأمر الثانى : فهو الظروف البيئية والطبيعية التى يقوم خالق الكون بتغييرها إن قليلا أو كثيراً، ومعنى ذلك أن الله قد أودع فى مخلوقاته مسار سيرها » .

والسؤال هنا على أى أساس من نظرية داروين يقال هذا الكلام ؟ .

إن داروين — كما عرضنا نظريته — لم يشر من قريب أو بعيد إلى دور الخالق الذى يطور الأنواع والأجناس، ولهذا نقول: انه ليس لهذا التخريج أساس من النظرية ، وإنما أساسه مستمد فقط من نفس قائله المؤمنة بدور

الخالق فى الطبيعة، ولذلك يصلح أن يكون هذا الحديث عن نظرية أخرى غير نظرية داروين .

وحينئذ يصبح تقويم هذه النظرية الجديدة بمقاييس أخرى تقوم على نقد علماء تاريخ الأحياء، وما تسفر عنه الأبحاث فى مستقبل الحفريات .

أما نظرية داروين نفسها التى تغفل دور الخالق، فهى أقرب إلى الإلحاد منها إلى الإيمان .

المراجـــع

١ — محب الدين الخطيب . الحديقة جـ٧ ص ٢٤٢ نقلا عن عبدالله بن عباس الجرارى . تقدم العرب فى العلوم والصناعات ص ٥٥ ط ١ نشر دار الفكر العربى . القاهرة (١٣٨٠هـ — ١٩٦١م)

٢ — إسماعيل مظهر . مقدمة أصل الأنواع ص ١١ مكتبة النهضة بيروت، بغداد بدون تاريخ .

٣ — المصدر نفسه ص ٥ .

٤ — نفس المصدر ص ١٢ .

٥ — د. محفوظ على عزام . نظرية التطور عند مفكرى الإسلام . دار الهداية . القاهرة الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م)

٦ — داروين. أصل الأنواع ١١٩

٧ — نفس المصدر ١٢٢

٨ — المصدر نفسه ١١٨

٩ — مجلة تراث الإنسانية . المجلد التاسع . العدد الأول ١٩٧١ وانظر: دكتور محفوظ على عزام . نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص ٣٣ .

١٠ — أصل الأنواع ١٢٣

١١ — دكتور على أحمد الشحات . نظرية التطور بين العلم والدين ص ٤٤ نشر مؤسسة الخانجى بالقاهرة . بدون تاريخ

١٢ — أصل الأنواع ١٢٩

١٣ — شمس الدين آق بلوت . دارون ، ونظرية التطور . ترجمه عن التركية أورخان محمد على ص ٩٠ — ٩١ . دار الصحوة للنشر . القاهرة .

١٤ — أصل الأنواع ٧٣٦، ٧٣٧

١٥ — المصدر نفسه ٧٣٧

١٦ — نفس المصدر ١٩٤

١٧ — نفس المصدر ١١٤

١٨ — المصدر نفسه ٢١٨

١٩ — الفارابى . آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٧ ط ١

٢٠ — المصدر نفسه ص ٣٠، نفس الطبعة

٢١ — نفس المصدر ٢٨

٢٢ — المصدر نفسه ٣٨

٢٣ — نفس المصدر ٣٩

٢٤ — ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق ص ٧٦ تحقيق ابن الخطيب نشر المطبعة المصرية ومكتبتها . بدون تاريخ

٢٥ — نفس المصدر ٧٧

٢٦ — نفس المصدر ٨١

٢٧ — نفس المصدر ٨١

٢٨ — ابن خلدون . المقدمة ص ٨٩ وانظر د. محفوظ عزام . نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص ١٢٢

٢٩ — تهذيب الأخلاق ٨١

٣٠ — نفس المصدر ٧٧

٣١ — نفس المصدر ٧٧

٣٢ — رسائل إخوان الصفا ص ٨٧ جـ ٢ الرسالة ١٨ دار صادر بيروت

٣٣ — المصدر نفسه ص ١٢٧

٣٤ — نفس المصدر ١٢٧

٣٥ — نفس المصدر ١٢٨

محتويات الحولية

الموضوع	الصفحة
— مقدمة الأستاذ الدكتور عميد الكلية	٥ — ٨
١ — مفهوم وحدة الأمة الإسلامية الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق	٩ — ٣٤
٢ — نظرية التطور بين داروين والمفكرين الاسلاميين الأستاذ الدكتور / عبد المعطى بيومى	٣٥ — ٦٤
٣ — المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم دكتور / جمعة على عبد القادر	٦٥ — ٩٦
٤ — الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم دكتور / السيد محمد دسوقى	٩٧ — ١٢٤
٥ — المقياس العلمى للمفسر الأستاذ الدكتور / سيد مرعى إبراهيم بيومى	١٢٥ — ١٧٦
٦ — سمات المنهج الاخلاقى فى القرآن الكريم دكتور / محمد السيد جبريل	١٧٧ — ٢٢٤
٧ — حجية الحديث المتواتر دكتور / محمود الخالدى	٢٢٥ — ٢٥٢
٨ — نقد الحديث دكتور / بهاء محمد الشاهد	٢٥٣ — ٢٨٤

محتويات الحولية

الموضوع	الصفحة
— مقدمة الأستاذ الدكتور عميد الكلية	٥ — ٨
١ — مفهوم وحدة الأمة الإسلامية الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق	٩ — ٣٤
٢ — نظرية التطور بين داروين والمفكرين الاسلاميين الأستاذ الدكتور / عبد المعطى بيومى	٣٥ — ٦٤
٣ — المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم دكتور / جمعة على عبد القادر	٦٥ — ٩٦
٤ — الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم دكتور / السيد محمد دسوقى	٩٧ — ١٢٤
٥ — المقياس العلمى للمفسر الأستاذ الدكتور / سيد مرعى إبراهيم بيومى	١٢٥ — ١٧٦
٦ — سمات المنهج الاخلاقى فى القرآن الكريم دكتور / محمد السيد جبريل	١٧٧ — ٢٢٤
٧ — حجية الحديث المتواتر دكتور / محمود الخالدى	٢٢٥ — ٢٥٢
٨ — نقد الحديث دكتور / بهاء محمد الشاهد	٢٥٣ — ٢٨٤

الموضوع	الصفحة
٩ — عقيدة التوكل على الله وأثرها فى كيان المجتمع دكتور / محمد على عز العرب السماحى	٢٨٥ — ٣٤٠
١٠ — أشراط الساعة بين العلم والدين د / سعد الدين السيد صالح	٢٤١ — ٣٦٤
١١ — دحض أباطيل القاديانية فى النبوة والوحى الأستاذ دكتور / عبد العزيز سيف النصر	٣٦٥ — ٣٩٤
١٢ — دعائم الوحدة الأسلامية فى القرآن الكريم دكتور / صلاح الدين يوسف شلبى	٣٩٥ — ٤٣٦
— بقية بحث الدكتور عبد المعطى بيومى	٤٣٧ — ٤٦٢
— محتويات الحولية	٤٦٣ — ٤٦٤

رقم الإيداع بدار الكتب
٦١٣٣ لسنة ١٩٨٩ م